

عنوان المقال: موضوعة النكوص والارتداد الطفولي في شعر زهرة بلعاليا
من خلال ديوانها الموسوم "ساحل وزهرة"
دراسة تطبيقية

الدكتورة /حفصة بوطالبي

كلية اللغة وآدابها

جامعة المسيلة

ملخص المقال:

موضوعة النكوص والارتداد الطفولي في شعر زهرة بلعاليا، مقارنة موضوعاتية تندرج ضمن النقد التطبيقي وذلك باستعمال آليات منهج التحليل النفسي، في محاولة لسير أغوار النص والنفس والذاكرة معا، اشتغلت على الديوان الموسوم "ساحل وزهرة" للشاعرة الجزائرية المعاصرة زهرة بلعاليا لاستكناه الهاجس المهيمن الذي يحرك عجلة الإبداع عند الشاعرة .

الكلمات المفتاحية:

مقاربة، موضوعاتية، تحليل نفسي، هاجس مهيمن.

Résumé :

Dans le présent article on a essayé de faire une approche thématique weberienne sur le poème intitulé "Sahel wa zahra" qui appartient à Zahra Belaalia poète algérienne moderne on s'appuyant sur l'analyse psychanalyse qui mener à dévoiler l'hantise dominante du poème qui oriente l'action de créativité chez l'auteur et qui est un engin actif pour les textes du poème.

Mots clés : approche, thématique, Jean paul weber, hantise dominante, analyse psychanalyse.

تتدرج هذه المقاربة ضمن النقد التّطبيقي، الذي تحاول الباحثة انجازه حول نصوص أدبية جزائرية معاصرة، باستعمال مناهج نقدية حديثة، وذلك في إطار مشروع نقدي هو مجال اهتمامها* اسهاماتها في سد مايعانيه الانتاج الأدبي الجزائري من فراغ في مجال النقد التطبيقي تحديدا ، مما يجعل الناقد يستشعر مسؤولية ما إزاء هكذا وضع.

تستعين هذه القراءة بمعاول منهج التحليل النفسي في سبر نصوص "ساحل و زهرة" ،وهو وسم ديوان فيه بعض من صاحبه كما يحمل بعض اسمها، تلك الشاعرة: "زهرة بلعالي" مبدعة جزائرية معاصرة ،من جيل الشباب من منطقة "الساحل" اسم قرية جميلة وملهمة، بنواحي تيزازة إحدى الولايات وسط الجزائر، ورغم هذا النزر القليل المتوفر عن جانبها السيري(الذي لا تستدعيه مثل هذه الممارسة النقدية) إلا أنّ رابط العلاقة بديوانها كان أعمق، إذ بدا طبعاً أن يشكل مدونة لمثل هكذا قراءة؛ بل مستدعي هذا النوع من النقد الذي يمتاح التوغل في النص، والنفس، والذاكرة معا، لاستكناه تلك الجوانب الكامنة في حياة المبدع وفنه، إذ ربما هي ذاتها لا تعرفها أو تقصدها، ولم تتحدث عنها قط.

وهذا الضرب في المقاربات تتيحه أكثر معاول النقد الموضوعاتي، المتعددة تطبيقاته تبعا لتعدد رواده واختلاف فلسفاتهم وكذا تطبيقاتهم، بيد أننا جنحنا أكثر إلى موضوعاتية "جان بول فيبر" Jean Paul Weber الذي انصب انشغاله في البحث عن إيجاد بعض التفسير المقنع للمحركات الباطنية للعملية الإبداعية؛ فكانت خلاصة ما توصل إليه أنّ كل أثر فني إنما هو ثمرة هاجس صاحبه، وكان يحرص على إظهار القيمة الإنسانية التي تحملها الآثار الأدبية، غير مهتم بعرق أو انتماء قومي أو زمن أو مكان؛ وهذه القيمة الإنسانية هي التي تؤهل الإبداع غالبا أن يكون عالميا و ربما بسبب من هذه القيم الإنسانية كان اختياري استعمال معاوله.

وهو الأوّل كذلك الذي أعطى أهمية بالغة ،وبعدا جديدا لطفولة المبدع بأحداثها المؤثرة وذكرياتها الصادمة تلك التي يتولد عنها غالبا هاجس مهيم "hantise dominant" يهيمن على كامل ابداعه دون أن يعي ذلك أو يتعمده، مما يسهم في فهم وتفسير الآثار الأدبية في كليتها وشموليته ومن ثم الإسهام في تحقيقها الفعلي sa concrétisation .réelle

وهذا الضرب من المقاربات الذي تتيحه معاول منهج التحليل النفسي؛ وإن بدا مغيب المشهد تقريبا في نقدنا الجزائري قديمه، ومعاصره إلا أنّ المسعى محاولة ممارسته، لكن دون أن نركن إلى الفرويدية المحدودة المفضية عادة إلى نتائج متكررة تكاد تكون نفسها في كل الآثار، ولا اليونجية الأكثر انطلاقا.

إنّما سنطعم المنهج ونطوّعه إيمانا منّا بجدوى الاستعانة باجراءات مناهج محاذية في فهم الآثار الأدبية الزنبقية الطبيعة وكذا في استجلاء محفزات العلمية الإبداعية لدى أصحابها ما صحّ أنّ الأسلوب هو الشخصية، وأنّ المعنى غالبا ما يكون كامنا في باطن المبدع وإن لم يعه هو ذاته وعليه فالشعر قطعة من نفس صاحبه، وشريحة موثقة لتهويماته وأخيلته يكشف أغواره وجوانب الإبداع لديه كما يقرّر حالته وينوب عنه حيّا أو ميتّا دونما حاجة إلى وجوده هو بشخصه لاستنطاقه ومخاطبته.

كذا هذه القراءة تسعى لاستكناه جانب من أغوار الشاعرة "زهرة بلعالي" عبر استنطاق نصوصها وذلك من خلال تفصي الموضوعات المهيمنة عبر كل قصائد ديوانها متمثلة في النكوص إلى الطفولة ممثلة ظهورا لاقتا.

وقبل المضي في التفصي لاستجلاء هذه الموضوعات المهيمنة، يتعين علينا الاستدلال أولا على صحّة ما ذهبنا إليه بالقياس الإحصائي لمعجمها الفني، الذي لاحظنا بأنّه لم يفلت من أسر الطفولة وعوالمها السّاحرة والأسرة في آن...

وانطلاقا من عتبة الديوان "ساحل وزهرة" يتكشف حنين جارف، وارتباط حميم بذلك المكان، وأيّ مكان؟ ذاك الذي يطغى حدّ مزاحمة "الأنا" بل أنّه ليزيحها وينحّيها ليكون هو الأول، وتلي "الأنا" ثانيا. ساحل... هكذا هو مطلق كمراعات الطفولة الأولى، مهما ضاقت أو رحبت تظل للنفس مأوى أمان.. هكذا هو مطلق كما ذكرياتها الأولى رنينها يتأبى على النسيان أو الكتمان.. لكنّه "الساحل" لصيق بزهرة وبعض كلّها فهما أبدا لا ينفصلان..

ونلج الديوان وليس كغيره، إذ لا إهداء ولا استجداء ولا تصدير يغري لقراءة الكتاب، إنّما تشدنا مجددا تلك العناوين لنصوص تطمئن النقصي إذ ثمة دوما ما يحيل إلى الطفولة وعوالمها، إن تصرّح بها متلفظا لسانيا كمثل "طفولة" وسم لنص من الديوان، ص: 11 وإنّ تلميحا بذكر لازم من لوازمها كمثل: النورس المسحور، بالألوان، تجارب، غميضة، اكتشاف...

فإذا ما توغلنا في أدغال النصوص راصدين المعجم الطفولي تأكد بجلاء أنّه يدور حول معنى عام هو إلحاح الشاعرة على الارتداد الدائم إلى طفولتها الأولى وعوالمها، ولعلّ

نصًا وسمّة (غميضة) تلك اللعبة المحبّبة كثيرا لدى الأطفال، تمارسها الصغيرات كما الصّغار
فيه تجسيد لبعض ما رصدناه...

تقول الشاعرة: تمرّ السّنة..

وبين المنافي التي تجرح

والقوافي التي تشرب جراحنا..

أبحث عنك طفلا شقيا..

تغمض قلبك أخفتني..

تكشف مخبئي صدفة

أكتشف غشك في اللعب..

أغمض..

تختفي..

أعشق هذه اللعبة الخائنة..

ومن نص "اكتشاف"، والأطفال الأكثر ميلا ونزوعا للاكتشاف، وإن يشاركهم الكبار

هذه السمّة فبأقل حدة و أقل أضرار، أمّا نحن فنكتشف سمات طفلة غرّة..

على فكره..

أنا تفكيري بسيط..

وقصوري ليس سرا..

و"بالألوان" تصرّح الشاعرة بأنها فعلا طفلة..

أنا لم أكبر كثيرا..

فلماذا يكبر الحزن بعمرى

ولماذا؟

أخجل من فوضى صدري...

إن دخلت قلبك الموزون يوما

ووجدت كل ما فيه مرتب...

كان يخشى لعنة الصدق.. فيكذب..

وأنا كنت أنام..

في سجون طفلة.. ضاعت دماها

وصحوت في دمي أحزان كوكب..

ومن الصفحة 76 وإلى ص 101 من آخر صفحات الديوان يتكرّر ويتلاحق بشكل

مذهل اطراد الطفولة حتّى إنّ هذا الإطراد يشكل نسبة عالية تربو عن 80% من مجمل الديوان، وأمّا النصّ الذي سجّل كمونا أعلى للحضور الطفولي حدّ أن يرتقي ليحقق مستوى النصّ الكاشف le texte révélateur على حدّ اصطلاح " Jean Paul weber نص "طفولة" لأنّه على بساطته ووضوحه يبيّن بجلاء ارتباط الشاعرة الوطيد بذكرى ماضيها البعيد مجسّدة هذه المرّة في "الطفولة"، بل ويجسّد الرغبة الملحة التي تسكنها في الارتداد إلى عوالمها، وتلك رغبة جامحة تسيطر على الشاعرة، حدّ أنها تحول بينها وبين أن تحاول الدّخول إلى عالم النّساء النّاضجات، العاقلات تقول الشاعرة:

يا طفلة..

تبعثر أشياءها بداخلي..

كم مرّة..

أعلنت أنّ هذا العالم المجنون..

ليس لي..

سذاجتي..

ذهولي عند بائع الألعاب..

قرص الطين في صيابي..

ضحكتي المدوية..

وهذه الشقاوة التي جرت دماء..

في مفاصلي..

ولا معامل الدمي - التي

بشنطة يدي.. معاملي..

كم مرّة رتبت كذبي..

غيرتي..

ورحت أدخل عوالم النساء العاقلات..

أعرض بها فضائلي..

كم مرّة..

قررت أن أصير امرأة..

أرتب الكلام جيّدا..

أبتسم بدقة..

أخلص خصلات شعري..

من سذاجة الجداول..

لكنني في كلّ مرّة..

أراك تمرحين في فضاء الروح..

تصنعين دمية..

أرجوحة..

أو بيت رمل في سواحي..

إنّ إطرادا على هذا النحو من الإصرار لكوكبة لسانية " Constellation

Linguistique" مشكلة من عنصر طفولة متلقّظا لسانيا، وكل ما يحيل عليها من لوازمها يمنح الشاعرة تفرّدا سيما وقد وظّفت هذا المعجم الطفولي اللافت توظيفا لم نعهده لدى غيرها من الشاعرات السابقات أو المعاصرات لها، لأنّه استعمال خاص بها برموزه وصوره، وحتىّ في طريقة تشكيل تلك الصورة، كل ذلك بدا متميّزا كالبصمة الدّالة على صاحبه.

وهو تفرّد يؤهل "النّكوص" أن يكون الموضوعة المركزية المهيمنة في أشعار زهرة بلعاليا، وإذ كان "J.P Weber" قد أقرّ أنّ كل أثر إنّما هو ثمرة هاجس صاحبه، فإنّ حوافز الإبداع ومحركات عجلته لدى الشاعرة يصح أن تتمثّل في ذلك الارتداد الطفولي، وهو سلوك خاص لا يصدر إلّا عن نفس قلقة برمت باحباطات الحاضر وصراعاته، فلاذت بنكوص إلى طفولة أولى أهدأ، وأمن، متخذة منها آلية تقيها غوائل القلق الحاد، وما يترتب عليه من مشاعر إحباط قاسية، قد تفقد الشاعرة التوازن النفسي ومن ثمّ الانسجام، لو لم تجد لها هذه

الآلية مخرجا، ولعل ما يدعم هذه الرؤية عبر نصوص الديوان امتزاج اطراد الطفولة بالشجن حتى لتكاد تقطر قصائد الديوان بالأحزان والدموع والألم ذاك الذي يتعالى حدّ أن يتسامى إلى نبرة ساخرة تقطر مرارة، من ص: 34 تقول الشاعرة:

لا تظن الدّمع في عيني شوقا..

ليس للأشواق دخل..

في شجوني..

لي جراحي..

وكأبتي التي تسكن بيتي معي..

وتخط شعرها فوق جبيني..

كن سطورا من عذاب في كتابي..

لست أنت كلّ تاريخ أنني..

وحتى يتحقق الارتداد الطفولي آلية دفاعية ناجحة ضدّ كل أشكال المثبطات والمحبطات وجدنا الشاعرة تسرف في اللّجوء إلى عوالم الطفولة إن بوعي أو حتى على مستوى اللاوعي، إذ تلج في استحضار كل لوازمها كالصّغر: ص 82:

أنّ تجمعي..

تجارب جاراتك..

وتطرحي الخسائر..

وحاولي..

أنّ تدخلني وريدي طفلة..

ومن نص الشقاوة ص 88:

ومارسي بالقلب ما استطعت من شقاوة..

والألعاب ص 99:

أنا لا أعرف حين يباغتني الشعر بجرأته..

إن كنت سأكتب..

عن رجل..

أو بضعة ألعاب..

والسذاجة، والدمى، وبيت الزمل، والأرجوحة، وحتى الجنون الطفولي، كل هذه رموز
تعكس لهفة الشاعرة على طفولتها الأولى التي انقضت، وما انطوت عليه من انطلاق
وتحرر للروح والجسد من ريق هو يدمي روحها ومعصمها امرأة ناضجة.

وتلك الكلمة الأخرى ومخاضها العسير على الجسد والروح معا تحتل همًا ضاغطا
ليس فقط على أدواتها، ولكن أيضا على رؤيتها الفنية، فكأنه الفن عند هذه المبدعة صنو
الطفولة، وكذلك كل أديب صحيح طفل صغير لم يكبر، طفل له خصائص الأطفال في
فرحه بالأشياء وسذاجته وتهلله وضحكه وخياله... ربما لأجل كل ذلك وجدنا الشاعرة
مستأنسة أن تعيش طفلة في ثياب امرأة تقول في ص: 88 من ديوانها

أنا لا فرق عندي..

أن تقول للأكوان بعدي..

أني كنت..

طفلة ريف غريرة..

لي ورودي وفرشاتني ورملني..

إلى أن تقول من ص: 83:

لم يتغير لون الورد..

ولم يتغير سحر الألعاب..

مازالت بالنبض حكايات أقرأها..

وأذوب في سحرها..

بعض الأتعاب..

هكذا هي تستأنس أن تعيش طفلة محتفظة بكل مفردات طفولتها الأولى أكثر تشبها
بركام الذاكرة، فكأنها ما وصلت بعد بل ولا تريد الوصول أصلا إلى مرحلة نساوة الطفولة،
لذلك نجدها تمارس العديد من الطقوس الفنية والحيل اللاواعية، التي تشدها إلى ماضيها
الطفولي، وكأنها تود أن ترجع بها عقارب الساعة إلى الوراء فتعود طفلة منعمة بالأمان

المفتقد والانطلاق المقيد في راهنها، تعود طفلة تنشد الفرح والمرح بلعبها، وظفائر شعرها وسذاجتها وحتى جنونها الطفولي.

وتلك ودادة يهرب إليها - كما هو مقرر نفسيا - كل من يعاني فشلا عاطفيا، أو صدمة محبطة تسبب له وباستمرار توترا نفسيا، وقلقا مستمرا إذا لم يتسامى به دمره.

ولكن ما مصدر هذا القلق والتوجس المتكشّف في شعر بلعاليا؟ إنّ محور شعرها ظاهر مواضيع أغلب نصوصه الرجل عموما، المثقف أو الشاعر تحديدا، فهو الذي تلهبها سياطه كيما تلهمها، فيلوح على مدار النصوص ذاك الصراع عنيفا متكررا بين عقل الأنثى وقلبها، لكانّ هذه الأنثى أزليا ومنذ تاريخ الجدّات تمرّ بتجارب عاطفية قاسية صادمة، ممّا يؤوّل بالعلاقة بين الرجل والمرأة آليا إلى التصدّع، حتّى تتأبّى الجبر والالتئام تلك العلاقة نتيجة تهدّم الثقة فيه بل فقدتها في أكثر المرات، فينجر عن ذلك أحساس مؤلم، متفاقم ذلك الجرح الغائر بأنّها الضحية وهو الوحش المارد ازاء حسناء أميرة تقول الشاعرة ص: 78 من الديوان

ظَلَّت الطفلة تلعب

وحكايا الوحش والحسناء ظلت..

مثلما كانت بعمرى

دائما..

أحلى وأطيب..

ويتفاقم التوجس من الرّجل تعزّزه رواسب تجيء أصلا من توهم الرّجل أنّه السيّد والحارس والسجان في آن، فحتّى حين تحلم بالمهادنة، فتكاد تطمئن إليه توقظها الدروس الماضية فيجهض الحلم سريعا:

أستمع إليك طفلة..

تشدها الأمانى عنوة..

فتشتهي لو تكبر أميرة..

بقصة مصورة..

لكنّها الدّروس..

تكسر طفولة الأحلام..

ومرّة أخرى تعزّز التوجّس حكايات الجدّات ،الخبيرات ،المجرّبات، المحذرات من
الوقوع في المصيدة

أحتاج لوقت كي أفنع الصغيرة..

التي تسكنني..

أنّ حكايا جدّتي بدمعها..

ودهشة يديها..

وانكسارها..

خرافة جميلة..

ولأنّّه وحده الشعر يرافق طفولة الإنسان، ووحده يظلّ وفيا يأخذ بيده إلى حيث مرافئ
الأمان عبر ألحانه الشجيّة والمبهجة في آن راحت الشاعرة بحدس أو بذكاء تتحسس دريها
باحثة عبره عن مشارف تضيء عتمات الرّوح، وآفاق واعدة تطل من شرفاته على حياة
أفضل وغد أمل آمن، من خلال شدوها بقصيد أسر النّغم، ومن ذا لا تأسره طفولة الإنسان؟
مهما مرّت معنّقة وقاسية، أمّا زهرة الشاعرة فماضية تشدو وتنشد تحرّرا ما.. لم تصل إليه
بعد، أو ربّما وصلت إلى بعضه ولم تستشعره.. تقول في ص: 90 من الديوان

أعترف بأنّي أشتهي..

لو أفقر كأرنب مشاكس..

أخالف وصايا أمّي..

أخرج..

من خوفها.. للغاب..

لا توجد في الدّنيا أنثى ترفض

أن تلعب كطفلة..

وتقرأ الأشعار في غرفتها

رغم أنّها تخطت خوفا أخطر، ذاك الخوف من اللّغة أو عليها، فأفصحت بجرأة لا
جارحة ولا فاضحة عن حاجات، أو مشاعر ومشاعل أنثوية امتاحتها من الواقع والذكرى
ببراءة لم يفسدها التّهويل ولا الادّعاء أو التّفلسف..

ولا غرو أن تكون تلك سمات قلم أنثوي، مرهف الحس، يقطر صدقا كلّما خطّ حرفا
عن انفعالات ذات إنسانية في الأصل، كانت ولا تزال من خلال موروث ثقافي متواتر
مضطهدة الجسد 'معذبة الرّوح، معلقة الطموح أبدا ...إلى أن يشاء لها غير هذا الوضع
سيدها ذاك الرجل.

الهوامش:

*ضمن هذا المشروع تم اشتغال الباحثة على آثار أدبية كاملة لأدباء جزائريين أهمها: عالم أبو العيد دودو القصصي دراسة موضوعاتية

- رؤية العالم في روايات عبد الحميد بن هدوقة .

المصادر والمراجع:

- ديوان ساحل وزهرة ،زهرة بالعاليا، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين

- ينظر حول المنهج أهم مؤلفات صاحبه Jean Paul weber

- Domaines thématiques.
- Genèse de l'œuvre poétique
- Stendhal, les structures thématiques de l'œuvre et du destin